يستنتج من كلّ ما تقدّم أنّ اللغة العربية لم تكن تميّز في بدايتها بين المذكّر والمؤنّث، بل أطلقت لفظة معيّنة على نوع الحيوان سوّاء أكان ذكراً أم أنثى مثل: إنسان للذكر والأنثى، ثم قالوا: رجل وامرأة، ثم قالوا: رجل ورجلة، كما قالوا: امرأ وامرأة.. ثم إنسان وإنسانة، وكقولهم أسد للمذكر والمؤنّث، ثم: أسد ولبوة، أسد وأسدة، ولبوء ولبوءة.

ويلاحظ أنّ مرحلة التطوّر هذه لم تخل من الفوضى والارتباك. وقد عزا اللغويون والنحاة هذه الفوض إلى الاختلاف القبلّي حيناً، وإلى حسّ العربيّ تارة أخرى، وقد يكون ذلك صحيحاً. ولكننا نقف مذهولين أمام اختلافاتهم المربكة.. إذ قد يجزم أحدهم بتذكير كلمة، ويجزم الآخر بتأنيثها، ويجوّز ثالث فيها الأمرين.. وأرجعوا ذلك إلى القبائل العربيّة التي يجوز الاستشهاد بما نقل عنها، وكلها حجّة.. وإن كان بعض الكلام مناقضاً لبعض.. كما سنبيّن بعد ذلك.. كلّ ذلك يدلّ على حالة الارتباك والفوضى التي أوقعنا فيها اللغويون والنحاة الذين لم يستطيعوا التقعيد بشكل علميّ وحاسم لظاهرة التذكير والتأنيث لأنّهم فرحوا بالنقول الكثيرة وخلطوا بينها.. وابتعدوا، نتيجة ذلك، عن منهج اللغة التطوريّ.

فإذا كان ما رأيت في عالم الحيوان الذي يقسم إلى مذكّر ومؤنّث حقيقة، فما قولك فيما ليس بذكر أو أنثى؟